ساعة غناء

- 1 -

إذا كنت نشأت نشأة علمية محللة لكل الظواهر المحيطة بنا مفسرة لغوامض الحياة حسبما يتراءى لنا مستعينين بمبادئ العلم ومقرراته، فذاك لا يعني أنه لا صلة بيننا وما في الحياة من متع بريئة يستلذ بها المرء وتنعم روحه بصورها الخلابة، بل واجبنا كباحثين مدققين أن نربي ما في نفوسنا من ميل وذوق وأن نغذى عواطفنا بأرقى ما يغذيها من نهل في مناهل اللذة غير مفكر في أسبابها ونتائجها وأن نتذوق أسرار الجمال ونصرف ميولنا نحوها إلى جهة تخلب الروح أكثر مما تثير الشهوة وتنير طريقا للعقل اما أن تدبر مفتاح اللذة الحسية وهكذا تكون الحياة عبارة عن اندفاع على تيارها الجارف وصورة لامعة لانعكاسات طهارة الروح ونقاوة الوجدان وليس اللذات النفسية؛ فكل شخص يسري الدم في عروقه له الميل التام نحو الجنس اللطيف أو نحو الموسيقى في أنغامها التنزيلية بصورة استسلامية تقودها الشهوة والتفاعل الكيماوي حيث يدري ذلك الشخص أو لا يدري، ولكن قليلا ما يتعمق في أسرار تلك الجاذبية وينفذ إلى صميمها فيدير قوتها نحو الخير البشري في مظاهر روحية ويكون منها ينبوعا فياضا من العبقرية والسحر المبين ولكن بالاستسلام الجسمي المطلق باستسلام الروح ووقدة التفكر.

لقد تقدم العام وفتحت المعرفة أمام أعيننا أبوابا استطعنا أن نرى من خلالها ما يحيط بالنفس من صور سواء كانت لامعة أو مظلمة وما يكتنفها من بواعث متباينة وآمال متضاربة، وهكذا أصبح واجب المفكر ألا يتفلسف في الحياة من طريق الخيال أو من طريق الاستنتاجات المنطقية أو على نور العقل المجرد الحجري، بل أن يتخذ مقاييس شتى تنير له الحياة الملتوية في طريقته الفلسفية وأن يستعد ليجرب أنواع الشرور كما

يجرب أنواع المحامد، وهناك يكون حكمه منسجما ومراعيا للظروف، قويا راسخ البنيان، محكم الحلقات، مرتب النتائج، فليس من شأن المفكر أن يزهد في الحياة كما ليس من شأنه أن يعكف على جلب لذاتها المتنوعة، ولا أن يتخذ الوسط بين العرفين قاعدة له حيث له هذه قاعدة لا تستعمل إلا عند البسطاء الذين لا يدركون مدى استقرارهم النفسي ولا ينير لهم التفكير السبيل الأقوم ، بل من شأن المفكر أن يعى أولا تطورات النفس وحدودها الواسعة والضيقة ثم يفتح لها ميادين التجربة حريصا على تهذيبها، متفهما قوتها ومحور ارتكازها، ضابطا للزمام الضاغط عليها، تاركا الشدة واللين لضعاف العقول وقاصري الأحلام.

- 2 -

لا أدري كيف سار القلم ولم اتجه به نحو هذا الاتجاه. بل غايتي أن أتحدث عن ساعة تذوقت فيها من أنغام موسيقية ساحرة وأن أعبر عن خطرات جالت في روحي في تلك الساعة الرهيبة التي خلوت فيها إلى الطبيعة وهى مرددة أنغامها فأرسم صورة عن النبوغ البشري وكيف سيمر في مدارج الحياة العلوية، ساعة أصغيت فيها للأستاد الشوا أمير الكمانجة.

ذهبت إلى حفلته التي أقامها في الجامعة السورية وفي النفس بقايا مرة عن الشرقيين وتقليدهم وأنا لا أحسب نفسي أنها ستجد نبوغا وإنما ستجد صورا ممسوخة غير متقنة عن النبوغ الأوربي ومظاهره العظيمة الشأن القوية البروز والشخصية، فقد اعتدنا ألا نشاهد فيما يزعمونه والشرقيون مصدر نهضتهم إلا تفوقا مصدره التقليد والمحاكاة لا النبوغ ولا العبقرية، ودخلت لمدرج الجامعة المملوء بالشباب وبعض الشيوخ وتساءلت عن باعث هؤلاء الأفراد هل حبهم هذا العبقري تقليد للغربيين أم اهتمام بهذا النابغة المصري؛ والحقيقة أن لك أن تمزج كل العوامل لكى تستنتج باعث الإقبال على هذه الحفلة، فالحاضرون جلهم من الشباب الراقيين المثقفين المتذوقين لمظاهر الفن وهم -

كسائر الشباب الشرقي - مهتمون غاية الاهتمام بتأييد ما يؤيده الغربيون ورفض ما يرفضون سواء وافق هذا الرفض أو ذلك التأييد فطرتهم، وهم أيضا، وبصورة مدهشة، حقا متلهفون على كل ما من شأنه أن يكون متصلا بمصر؛ فإن السوري المتعلم يتفوق على المصري في مصريته ويقدر ما بنهضته؛ فإن شخصية سعد أو النحاس لها تأثير مثلا في وادي النيل بل إنك ترى تأثيرها في سائر البلدان العربية قويا لامعا يسيطر على النفوس وعلى الخصوص في سوريا تربة الوطنية ومعقل التضحية، فالصحافة المصرية تغزو تلك البلدان كما تغزو بلداننا ويجد فيها الجميع سلوة عن جرائده المقيدة. والصحافة المصرية إذا تكلمت عن ما في مصر وعن النابغين فيها لا تحكي بالقلم السوري الجاف بل تسلبك وتتولى على لبك ثم تقودك إلى ذلك التقديس وذلك الاحترام المدهش، والحقيقة أن مصر إذا أصبحت اليوم في المستقبل زعيمة البلدان العربية فلا ريب ولا شك أن مصدر ذلك هو صحافتها المنتشرة في أنحاء العالم العربي، فهي صلة متينة قوية مكنت مصر من الزعامة الحقة. وأعتقد عن صحيح أن الوفد المصري لو حاول أن يضم إلى جهاده في مصر ونضاله في سبيل الحق والحرية هذه الأمم العربية وأن يقودها بزعامته لاستطاع بشيء كثير من السهولة أن ينجح وأن يقاوم تيار الغربيين في الشرق مقاومة فعلية لكنها تحتاج إلى كثير من الجهد وذلك نظرا للثقة الغالية التي تتمتع بها في قلوب هؤلاء الأنصار الروحيين الفدائيين، وأستطيع أن أقول إن أبناء هذه البلدان يعرفون عن القضية المصرية وعن النهضة المصرية ما لا يعرفونه عن بلادهم وأوطانهم، فلا غرابة حينئذ إذا زعمنا أن من بواعث حضور هؤلاء الأفراد وإقبالهم الكبير على الحفلة ان يكون مقيمها من مصر التي تحرز هذه المكانة العالية في نفوسهم.

- 3 -

ابتدأت الحفلة الساعة التاسعة وانتهت الساعة الثانية عشرة ونصف ولكني لا أذكر كيف

مرت هذه الساعات من حياتي من دون أن أشعر ولا أن أدري، بل لقد تناسيت الحياة وتناسيت نفسي، وكأن ستارا كثيفا انسدل عن تفكيري أثناء تلك الساعات الطوال، وكأن روحي انفصلت عن جسمي واستقرت في عالمها الذي هو غير هذا العالم المادي بل لقد انتهت وروحي ما زالت تردد تلك الأنغام السحرية وتود لو يتيح لها أن تستمع إليها مرة أخرى أو مرات عديدة أو طول الحياة.

لم يكن في الأستاذ الشوا كثيرا من الإتقان العلمي والمهارة الغنائية بل عبقرية وإلهام فطري، وحسبه أن يستمع إلى إحساس نفسه وعمق تأثيره ثم ينظمها على وتر كمنجة تابعا نبضات فؤاده فإذا ما انتهى تراه يتصبب عرقا وكأنه قد انتهى من أشغال غاية في الشقاء الجسمي والعقلي وما ذلك إلا لجهده القوى في انحصار فكره وإجهاد يده في تتبع ما ترسمه له روحه الخفاقة ونفسه الفتانة. فهو لا يتقيد بمبادئ الفن الموسيقي كما يحكي عن إحساساته ويستلهم نفسه.

وقف على المسرح وفي يده كمنجة بل وفريدة روح تستحق حيويتها باتصالها بنبضاته الخفاقة لا أدري بما أعرف عنها ولا بما أصفها اهتزازات دعتنا أن نقف على غور أنفسنا وأن نخلد إلى أرواحنا في أعلى عليين وأن يفسح أمامنا طريق النور والرحمة.

ثم ينشد ذو صوت جميل عن جانبه شطرا من البيت برخامة وعذوبة فيحاكيه الأستاذ الشوا لا بفمه ولكن بكمنجته فلا ندري - وايم الحق - أيهما الصوت البشري من الآخر بل ترانا نستمع إلى أنغام الكمنجة وتوقيعها أو كلامها بذلك الصوت الرخيم بدهشة وحيرة وتساؤل أهذا الصوت صادر عن هذه الأنغام السحرية وعن هذه المحاكاة التي فاقت الأصل وهكذا من حيث لا ندري وما ذلك في الحقيقة إلا روح الشوا تردد بعذوبة أنغام الوحى والإلهام.

وأخيرا رأينا نبوغ شوا بأجلى مظاهره أو أقوى صوره وأعمق أثرا، فهو لا يحاكي الصوت البشري أو أنغام الموسيقى وكفى، بل يحاكي الطير في مختلف صورها وضروب ألوانها،

فيغرد تغريد الطير ويبكي بكاء الطفل بل يؤذن لك الآذان العربي الإسلامي بكل خشوع وروعة فيخيل إليك أنك تسمع مؤذنا رقيق الصوت عذب النبرات خاشع الفؤاد ملتمسا العفو والمغفرة في فجر تضيئه القمر بأشعتها النورانية صارخا: « الصلاة خير من النوم » وما الصلاة في الحقيقة إلا نور القلب ودرء ما في النفس من خمول واستقبال اليوم بقوة ونشاط.

يمثل السيارة في سيرها فيستسلم لذلك الحلم الجميل عندما تركب السيارة وتسمع محركها يزخر ايذانا بوقت الرحيل ثم تودع أهلك وذويك، فتتناقل الدمعة الحارة من خدك إلى خدهم ومن خدهم إلى خدك وتضم إلى صدرك أعز الناس إليك ثم تسير السيارة بالجسم لا بالروح. ويمثل المركب على ظهر النيل وأصوات المجذف ترن في الآذان فتظن نفسك تشاهد وادي النيل وما أنعمت عليه الطبيعة من جمال وفتنة، ولست أدري كيف يشعر المصري عند سماع هذه القطعة الفنية الخالدة من حياته وكيف تهتز مشاعره، فأنا لم أشاهد النيل ولم أسمع خريره ولكني شاهدت نهرا يهيج حنوي الآن وسمعت ضربات الجذاف ورأيت جمالا في المناظر الطبيعية لا أدري هل لمصر مثلها.

استمعت إلى الأستاذ الشوا في هذا الدور ودمع عيني يهطل وشوقي الكامن للوطن يتقيد وقلبي يفزع حيث تمثلت لي ذكرى وطني في نهر أبي رقراق وتصورت لي مناظره وما تحيط به من مجال ودور المدينتين بالرباط وسلا ومناراتها تلمع وغروب الشمس ينشر في الفضاء وعلى سطح المحيط أشعة ذهبية تتماوج بين الأمواج والسحوب الكثيرة الألوان البديعة الأشكال ترسم من الجمال ما يسحر اللب ويذيب قلب أي جامد ونحن زهرة من الأصدقاء اتحدت أرواحنا وتآزرت نفوسنا وتآخت عقولنا في قارب صغير ونحن تارة نستمع إلى الموسيقى وطورا نصمت لجلال الجمال المحيط بنا فترتعش أبداننا وتتأثر أعصابنا من هذا الموقف الرهيب فتخر أنفسنا ساجدة لخالق هذا الكون الجميل.

فإذا ما انتهت الحفلة رأيت الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن الأستاذ ساحر لهم

وتركهم في غير هذا العالم يهيمون ...

هكذا التفت إلى رفيقي وقلت له: ليس هو بالمقلد كما توهمت سابقا ولكنه نابغة فذ ما على المصريين إلا أن يفخروا به ويحلونه المكان اللائق بأمثاله من عظماء الرجال وعبقريهم.

- 4 -

الفنون الجميلة هى الموسيقى والغناء والشعر والرسم والنحت وقد يستطيع العلم - ولا ريب - أن يفسر لنا أسباب علاقة الإنسان بهذه الفنون وأن يعلل أسباب تلك العلاقة تعليلا شافيا يطمئن إليه العقل، وذلك الشرح وهذا التعليل لا يهمنا من أمرهما الآن إلا أن نعرف كيف توصل العالم إلى كشف الستار عن هذه الميول العميقة الأثر في النفس البشرية وإنما في غيرها لم يتوصل العلم إلى الفتح عن طريق النفس، فهو مهما اتخذ من علل ومهما التمس من النتائج لم يصل إلى شخصية الإنسان ونفسيته ولم يعرف العوامل المكونة لما فيهما من ميول، فإن النفس البشرية لم تتكون فجأة أو دفعة بل لقد سايرت الطبيعة في أطوارها المختلفة أحقابا ودهورا من السنين واستقر فيها ما يظهر الآن من الصعوبة بمكان محاولة تحليله ورده إلى أسبابه الأصيلة، فإذا استطعنا أن ندرس ما طرأ على الطبيعة من تطورات وانقلابات لم نعجز أن نكشف ما نجد في نفوسنا من الأسرار الغامضة والبواعث الخفية؛ وحب الإنسان لتلك الفنون الجميلة المتقدمة ليس إلا عبارة عن ميل ارتكز في نفوسنا أولا بعوامل الطبيعة وأصبح اليوم مندمجا فيها بصورة لم يبق معها ميلا، بل شعور تفيض به النفس ولا تعرف له استقرارا في مجالها الواسع.

إن حب النفس لتلك الفنون هو من حيث القوة والغريزة على حسب الترتيب المتقدم وكلما ارتقى الإنسان وخطا خطوة في سبيل التذوق الفني ازداد تأثيرا بكل نوع من تلك الفنون حتى ليصبح مجموعة أعصب حساسة وقطعة رنانة.

فالموسيقى تؤثر على سائر الأفراد مهما تباينت أميالهم واختلفت أذواقهم، والغناء لا يتذوقه

كل الأفراد على صورة الإطلاق، فالمتذوقون له أقل من المتذوقين للموسيقى، وهكذا الشعر وما بقى من الفنون، فانظر إلى النحت - وهو الأخير - إنك لا تجد إلا أقلية ضئيلة في المجموع تتذوق ما فيه من جمال أو ما يدل عليه من حياة.

أتذكر أني منذ شعرت بالحياة كانت الموسيقى تطربني وأتمنى أن لو يسكت المنشد من إنشاده لأسمع صدع الأوتار حتى لقد كنت أذهب إلى جماعة من الموسيقيين وأجالسهم ثم أنقر بيدي على الطاولة أثناء طربهم فكانوا يصخبون مني وكان أهلي يمنعونني من العمل زعما أنه يسقط الشرف ويؤدي إلى المفاسد. ومن يدري فلعلهم لو شجعوني لأصبحت الآن مولعا بالموسيقى لا بالسماع فقط بل بنقل ما يشعر به الصدر إلى فتحرق اهتزازات يدي الأثير بصورة جنونية.

وأتذكر أيضا أني كنت أكره الرسم ولا أرى فيه أدنى صورة للجمال، بل كنت أعتقد أن اهتمام الغربيين به مجرد خداع وكبرياء، فقد كنت أنظر إلى الرسم وأستمعنه جيدا فلا أجد فيه أى أثر للفن، والسبب هو اعتقادي السابق أن الفن صورة تلمس وما ذلك إلا لضعف مشاعري وقصور إحساسي. أما الآن فإني بدأت أرى في تلك الفنون الجميلة ما لا رأيته في عهدي الأول، حينئذ قلت قواى العقلية والعاطفية في طريق النمو، وها هى تتدرج إلى ما أعرف له الآن حدا فاصلا.

وبعد، هذه خواطر سجلتها وأنا مدرك لما يكون فيها من آراء قد لا تناسب الدرجة العقلية التي ستصل إليها عقليتي في المستقبل القريب، ولكن لتكون كتابتي هذه مؤرخة لعهدي هذا. ومهما قدم العقل الإنساني فهو لا يزداد إلا افتتانا بجمال الطبيعة وتقديسا لما يشعر فيه من أميال ومشاعر.

دمشق 9 مارس 1932

سعيد محي